المشاركة

بين الانتداب والاستقلال

لانيس المقدسي
استاذ الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

وضعت الحرب الكبرى أوزارها والوطنيين في البلدان العربية ، ولا سيما مصر وسوريا والعراق ، آمال قومية واسعة . على ان عصبة الامم لم تلبث ان قررت ان هذه البلدان لا تزال في حاجة الى وصاية او ارشاد بعض الدول الكبرى . وهكذا وضع نظام الانتداب او الحماية (سمّه ما شئت) . فاعترى الشرق العربي شعور عام بالخيبة واستفزّ ذلك العناصر الوطنية فهبّت تسعى لنيل أمانيها . وهذه المساعي هي أساس العوامل التي كان لها أعظم أثر سياسي في شعر الحقبة الاخيرة . وهي تظهر في أربع ظواهر رئيسية : —

١ — كفاح القومية المصرية
٢ — الثورة العراقية
٣ — الثورة السورية
٤ — المشكلة الفلسطينية

ولنلق نظرة عجلى على كلّ منها

(كفاح القومية المصرية) وهو قديم يرجع عهده الى بدء الاحتلال البريطاني ، على ان أول من نظمه وأول من وحد الاتجاهات الوطنية مصطفى كامل مؤسس الحزب الوطني . وقد صدق أمين الرافعي إذ قال[1] — « تبددت بمصطفى كامل كلّ الاباطيل التي كان خصوم مصر يذيعونها عن الروح الوطنية في البلاد ، وكان احتفال الامة بجنازته أروعَ مظهر اثبتت به مصر أنها أمة حية لا تستطيع ان تعيش الاّ أمة مستقلة »

(١) أبطال الوطنية (رضا) ١٩٢٣ ص ١٥

وقد ألهب مصطفى كامل الشعر العربي في مصر وجرّأ الشعراء على مهاجمة المحتلين ومطالبتهم بالجلاء ، كما دفعهم الى التغني بالحرية والكرامة القومية

فلا بدع ان نرى في الشعر العربي عند موته انقاداً تتأجج فيه العواطف القومية كقول حافظ ابراهيم من باثيته المشهورة في ذلك الزعيم [1]: —

هنيئاً لهم فليأمنوا كلّ صائح ... فقد أسكت الصوت الذي كان عاليا
وماتَ الذي أحيا الشعور وساقهُ ... الى المجد فاستحيا النفوس البواليا
شهيد العلى لا زال صوتك بيننا ... برنّ كما قد كان بالامس عاليا
يناشدنا بالله ان لا تهرّقوا ... وكونوا رجالاً لا تسرّوا الاعاديا

وأشد من ذلك قصيدته في حفلة تأبينه ومطلعها [2] : —

نثروا عليك نوادي الازهار ... وأتيتُ انثر بينهم أشعاري
زين الشباب وزين طلاّب العلى ... هل أنت بالنهج الحزينة داري
غادرتنا والحادثات بمرصدٍ ... والعيش عيش مذلةٍ وإسار
ما كانت أحوجنا اليك اذا عدا ... عادٍ وصاح الصائحون بدارِ
ومنها : قم وامح ما خطت يمين كرومرٍ ... جهلاً بدين الواحد القهّار
جزع الهلال عليك يوم تركتهُ ... ما بين حرّ أسىً وحر أوار
متلفتاً متحيّراً متخيّراً ... رجلاً يناضل عنهُ يوم فخار

وقصيدته الذكرى ومطلعها: [3]

طوفوا بأركان هذا القبر واستلموا ... وانقضوا هنالك ما تقضي به الذمم
ومنها : هنا الكميُّ الذي شادت عزائمه ... لطالب الحقّ ركناً ليس ينهدم
لبيك نحن الألى حرّكت أنفسهم ... لما سكنت ولما غالك العدم
قبل اسكتوا فسكتنا ثم أنطقنا ... عسف الجفاة وأعلى صوتنا الألم
لبيك إنا على ما كنت تعهده ... حتى السود وحتى تشهد الامم
فيلم النيل أنا خير من وردوا ... ويستطيل اختيالاً ذلك الحرم
يا أيها النشء سيروا في طريقته ... وثابروا رضيَ الاعداء أم نقموا
فكلكم مصطفى لو سار سيرته ... وكلكم كامل لو جازهُ الهمم

(١) ديوانه (١٩٢٢) ٣ — ١٠٧ (٢) ديوانه (١٩٢٢) ٣ — ١١٠
(٣) ديوانه (١٩٢٢) ٣ — ١١٧

ولشوقي في رثاء مصطفى كامل قصيدة مشهورة مطلعها —

المشرقان عليك ينتحبان في نأتم قاصيها والداني

وهي من عيون الشعر ويدور اكثرها على مآثر الفقيد وشخصيته ومنزلته في قلوب الناس. ومثلها قصيدة خليل المطران نجدها في ذيل ديوانه (مطلعها « اعلى مكانتك الاله وشرّفا ») وهي اكثر من تسعين بيتاً طاراً وتُصوّر الفقيد زعيماً وطنيًّا ضحى بحياته في سبيل بلاده كقوله

مصر التي كافحتَ لُدَّ عُداتها متصدّراً لرُماتها مستهدفا
مصر التي سقت الجيوش منايةً ومُنىً لتكفيها المُغير المجحفا
عرّفت أهلها حقيقة قدرهم وكفاهمُ من قدرهم أن يُعرفا

ومن المراثي التي تذكر قصيدة احمد نسيم — ما بال دمعك لا عاصٍ ولا جارٍ[1] —

وبمناسبة الذكرى السابعة عشرة لوفاة مصطفى كامل نرى لشوقي قصيدة تنضح بالوطنية كقوله يخاطب الفقيد[2]

لك الخُطبُ التي غصّ الاعادي بسورتها وساغت للندامى
فكانت في مرارتها زئيراً وكانت في حلاوتها بغاما
بك الوطنية اعتدلت وكانت حديثاً من خرافة او مناما
بثيت قضية الاوطان فيها وصيّرت الجلاء لها دواما

وفي هذه القصيدة يستعرض احوال البلاد السياسية ثم يستطرد الى البحث فيما تحتاج اليه من وسائل الاصلاح

ومن اراد ان يعرف شيئاً عن الحركة الادبية التي احدثها موت مصطفى كامل فليرجع الى الصحف العربية سنة ١٩٠٨ . والى ما نشر من الشعر في ذلك العهد

***

وينتقل لواء الجهاد الوطني الى يد سعد زغلول . وفي سعد تجسّمت خوالج الامة المصرية واماليُّها بعد الحرب الكبرى . وقد اصبح مثالاً في الجهاد القومي لكل الامم العربية المجاورة فما هو يثير مصر مطالباً بالاستقلال ، وها هو يُنفى مع رفاقه الى جزيرة سيشل . ولما افرج عنهم وعادوا الى الوطن استقبلهم الشعر العربي استقبال الابطال وقد اشترك فيه اكثر الادباء في وادي النيل وفي مقدمتهم شوقي وحافظ والمطران والعقاد والمازني واضرابهم . وبموت سعد بلغت الحماسة الشعرية اعلى درجاتها . فنظم في مصر ، كما نظم في سورية ولبنان والعراق والمهاجر

(١) راجعها في ديوانه (١٩٠٨) ص ٢٣ (٢) الشوقيات ١ — ٢٧٧

ما لا يستطاع حصره الا في مجلد خاص ، من مراثٍ تصف مناقبه العالية وكفاحه الوطني الحميد . وقد اقيمت له حفلات تذكارية متعددة نذكر منها على سبيل التمثيل تلك التي اقامها العراقيون في بغداد ١٩٢٧ وادباء المهجر البرازيلي في سانبولو سنة ١٩٢٨ وقد اشترك فيهما أبرز الادباء في تلك الاقطار

ولم تمت الحركة الوطنية المصرية بموت سعد بل ظل خلفاؤه يناضلون . وقد استطاعوا بثباتهم ان ينالوا حق الاعتراف باستقلال مصر وعقدوا مع بريطانيا معاهدة صداقة تمّ لهم تنظيم شؤونهم . ولم يلبثوا ان دخلوا عصبة الامم

وقد تخلّل هذا النزاع الطويل الذي رفع لواءه مصطفى كامل وسعد زغلول وغيرهما من رجال مصر حوادث شتى كان لها أثرها الخاص في الشعر كحادثة دنشواي ورفع الحماية ، واعلان الملكية ، وثورة ١٩١٩ ، ومسألة الامتيازات الاجنبية ، وغيرها . على ان هذه الحوادث عند التحقيق ليست الا حلقات من سلسلة المشادّة بين الانتداب والاستقلال

﴿ الثورة العراقية ﴾ من المعلوم انه لما احتلت بريطانيا العراق نشرت للعراقيين (كما نشرت لسواهم من ابناء العربية) منشوراً تبين فيه اسباب احتلالها وأنها انما تقصد تحرير العرب لا فتح بلادهم . واليك نص هذا المنشور : — [1]

« إن الغاية التي ترمي اليها بريطانيا العظمى وفرنسا من مواصلتها في الشرق تلك الحرب التي اثارتها مطامع الالمان هي تحرير الشعوب الرازحة منذ زمن تحت نير الاستبداد التركي تحريراً تاماً وتشييد حكومات وادارات وطنية تستمد سلطتها من رغائب الاهالي الوطنيين الصادرة عن رضاهم وحسن اختيارهم . وتوصلاً لهذه الغاية قد اتفقت بريطانيا العظمى وفرنسا على تشجيع ومساعدة حكومات وطنية في سوريا والعراق اللتين قد تم تحريرهما فعلاً على يد الحلفاء وفي البلدان الاخرى التي يسعى الحلفاء لتحريرها والاعتراف بهذه الحكومات عند ما يتم تنظيمها فعلاً . وإن بريطانيا وفرنسا لا يخطر في خلديهما قط ارغام هذه البلدان على قبول نظامات معينة من اي نوع وجل اهتمامهما هو ان تضمنا لهذه البلدان بمساعدتهما الفعالة سير الحكومات والادارات التي يتخذونها عن محض ارادتهم سيراً منتظماً الخ الخ »

فكان من الطبيعي ان يتوقع العراقيون والسوريون وسواهم عهداً استقلالياً تاماً . لكن الامور في العراق جرت منذ الاحتلال على غير ما يرام فقد رأى العراقيون سوريا تتمتع حيناً (أيام فيصل) بالاستقلال وبالملك وهم لا يزالون تحت نير الانتداب . ثم حدثت حوادث زادتهم امتعاضاً من حكامهم البريطانيين . فأخذ الوطنيون منهم يتفاوضون ويبحثون سراً في موقفهم

(١) راجع في « العراق ليدرري الاستقلال والانتداب » لتعريب ص ٨٥

واتفق الوجهاء ورجال الدين على طلب الاستقلال وتعيين أمير من آل البيت الحسين . وفي سنة ١٩٢٠ دارت بينهم وبين البريطانيين مراسلات ادّت الى مؤتمر عام قدّم فيه المندوبون العراقيون ثلاثة مطالب رئيسية هي :— (١)

١ — الاسراع في تأليف مؤتمر يمثل الامّة العراقية ليعين مصيرها وشكل ادارتها ونوع علاقتها بالخارج

٢ — منح حرية المطبوعات ليتمكن الشعب من الافصاح عن رغائبه وأفكاره

٣ — رفع الحواجز البريدية بين أنحاء القطر اولاً وبينه وبين الاقطار المجاورة والممالك الاخرى ثانياً ليتمكن الناس هناك من التفاهم بعضهم مع بعض ومن الاطلاع على سير السياسة الراهنة في العالم

والظاهر ان التفاهم بين السلطة والوطنيين كان متعذراً فعمدت السلطة الى سياسة الارهاق، وقبضت على بعض الزعماء فنفت بعضاً واعتقلت آخرين . لكن هذه السياسة لم تأت الاّ بعكس المطلوب . فقد أحرجت الوطنيين ولا سيما سكان وادي الفرات حتى افتى امامهم الكبير محمد تقي الشيرازي بجواز امتشاق الحسام في وجه السلطة دفاعاً عن الحقوق القومية (٢)

وهكذا تمت فكرة اعلان الثورة . وقد القى محمد الباقر الشبيبي يومئذ خطبة حماسية وانشد قصيدة منها (٣)

بني يعرب لا تأمنوا للعدى مكرا خذوا حذركم سُمّ فقد أخذوا الحِذرا
يريدون فيكم بالوعود مكيدة ويبغون ان حانت بكم فرصة غدرا
فلا يخدعنكم لينهم وتذكروا اضاليلهم في الهند والكذب في مصرا
ومن مات دون الحق والحق واضح اذا لم ينل فخراً فقد ربح العذرا

وفي هذه الثورة يقول الجواهري من قصيدة (٤)

إلام التواني في الحياة وقد قضى على التواني الموتَ هذا التنازعُ

وبعد ان يذكر ان في العراق نهضة يقابلها نهضات في سائر البلدان العربية يقول عن الثائرين

ويوم نضتْ فيه الخمول غطارفٌ يصان الحمى فيهم وتحمى المطالع
تشوّقهم للعز نهضة ثائر حنين ظماء اسلمتها المشارع
لقد عظموا قدراً وبطشاً وانما على قدر اهليها تكون الوقائع
وما ضرهم بُنّو السيوف وعندهم عزائم من قبل السيوف قواطع

(١) نقلاً عن العراق للحسني ص ٩٠
(٢) العراق — ص ١٠٣ (٣) العراق — ص ١٠٢ (٤) ديوانه (١٩٣٥) ص ٤٩

اذا استكرهوا طعم المنايا فأبطأوا أُتيح لهم ذكر الخلود فسارعوا

ثم يصف الثورة في الكوفة ووادي الفرات واستفزاز الانكليز لهم ، ويبدد مناقب موري شرارتها الاولى الشيخ الشيرازي . ومن قوله فيه : —

تثور به للموت نفس أبيّة وتأبى سوى عاداتهن الطبائع
يطارحهُ وقع السيوف اذا مشى كما طارح المشتاق في الأيك ساجع

والقصيدة اكثر من ٧٥ بيتاً وكلها على هذا النمط الحماسي . وله قصيدة اخرى في الثورة مطلعها [١]

ان كان طال الامدُ فبعد ذا اليوم غدُ

ولحيري الهنداوي في الثورة قصيدة طويلة نارية الروح مطلعها [٢] — ايها الشرق هل فقدت الشروقا — ومنها مخاطباً وطنه

أنت أذنبتَ ام بنوك ام الظـــلاّم شاءوا ان يخصبوكَ الحقوقا
بِتّرا امرهم بليـلٍ وجاءوك جيماً يتلو فريق فريقا
حاولوا — لا أبا لهم — ان يكون الـــشرق كالعبد مستضاماً رقيقا
فنهضنا كالأُسد في أوجه الـــقوم لنجتثّ بغيهم والفسوقا

ومنها : ويك لا ارتضي الحياة بذلٍّ قم فزُقْ إهابها تمزيقـــا
وأدرْ لي في الرافدين حميّا الـــحرب صرفاً وكسّر الابريقا
ان موتاً يكون في ساحة العزّ لموتٌ أجدرُ به ان يروقا

الى ان يقول —

ليت شعري هل مبصر إنا يوماً تعلَمَ ابن الحسين فيها خفوقا
تلك أمنيّتي فلا عيش الاّ ان أراها تهزّ غصناً وريقا

ومن موقدي الشعور الوطني يومئذ الشيخ مهدي البصير شاعر الحلّة وهو من الذين اعتقلوا وقتوا . ومن شعره الثوري المحرّك قوله في قصيدته « لبيك ايها الوطن » . ومطلعها [٣] —

ان ضاق يا وطني عليّ فضاكا فلتتسعْ بي للامام خطاكا
ومنها بك همتُ او بالموت دونك في الوغى روحي فداك متى اكون فداكا ؟
ثق أنني سأذبُّ دونك باذلاً روحي لارخصها فما اغلاكا
فليسخط القريّ أني ناهضٌ أقضي رجائي ان أنال رضاكا
كذبتك أقطاب السياسة عهدها فلتضمنّ لك الحياة طُياكا

(١) راجعها في ديوانه ٢٣٦ (٢) الادب العصري (بطي) ١ — ١٦٦ (٣) — الادب العصري ٢ — ٩٦

أفيطلبون لك الرعاية ضلة ماكان أقصرهم وما احجاكا
لو أنصفوك لحرّروك لانهم رجحوا قضيتهم بظل لواكا

ومثل هذه العواطف تتجلى في شعر عبد الحسين الازري ، ومحمد ابي الخاسن ، وعلي الشرقي ، ومحمد الهاشمي ، وسواهم . اما الزهاوي والرصافي فلم نر لهما شبئاً من ذلك في ما نشر من شعرهما

***

اشتملت الثورة فوقع من ضحاياها مئات من الطرفين . ولم تر بريطانيا بدّاً من مصالحة الثوار . فأصدرت منشوراً بالعفو العام . ثم « شكلت » للعراق حكومة وطنية موقتة الى ان يتم انعقاد مؤتمر عربي عام يعين مصير البلاد وشكل حكومتها

وكان فيصل في اثناء ذلك قد انهار عرشه في دمشق ، فقرر باتفاق الطرفين انتخابه ملكاً على العراق وصرف النظر عن عقد المؤتمر العام على ان الشعب استفتي في امر انتخابه فنال ٩٦ بالمئة من الأصوات وهكذا نودي به ملكاً واحتفل بتتويجه في ٢٣ آب (اغسطس) ١٩٢١

وكان لهذا الحادث التاريخي اثر يذكر في الادب العربي فقد القي فيه من الخطب والقصائد ما لا يتسع المقام لذكره . واليك انموذجاً منهُ قصيدة انشدها الزهاوي في حضرة الملك فيصل على اثر قدومه عاصمة الرشيد[1] وفيها يقول :—

إنا نحيوك فاسلم أيها الملك ومصطفوك لعرش شاده الفلك
عرش العراق ضمان العراق وفي تأييده الشعب والأحزاب تشترك
الناس من فرح إذ جئت رأسهم من بعد ما قد بكوا من يأسهم ضحكوا
قد ارتضاك له فاهناً بدولته الله والناس والتوفيق والملك
هذا السلام يعمّ الرافدين غداً فلا دمٌ بعد هذا اليوم يسفك
جرى ليلحق ناس بابن فاطمة حتى اذا تعبوا في جريهم بركوا
من هاشم من قريش من ذوائبها حيث الوشائج والارحام تشتبك

ومنها :

لله يا فيصلٌ ما أنت مورثه للعُرب من شرف في شكره اشتركوا
في نهضة برجال كنت تأسهم حيناً لتحرير اوطان بها السبكوا
عش للرقيّ فان الشعب اجمعهُ مذ هبّ يفتح عينيه بهِ شدكُ

***

ولا ينكر انهُ بتنصيب فيصل استقرت الحال نوعاً في العراق على ان الاماني القومية لم تصل

(١) الادب العصري (بطي) ١ — ٤١

وثبة واحدة الى غايتها . فكان موقف العرش حرجاً بين السلطة المنتدبة والقومية العراقية المتوثبة لكنّ فيصلاً كان ربّاناً ماهراً فسيّر المركب بين اللجج برفق وحكمة ، واستطاع قبل موته ان يوقّع معاهدة الاستقلال التام وان يدخل العراق في عصبة الامم

ولم يخل الشعر العراقي في اثناء ذلك من روح الترم فبرغم الهدنة السياسية في العراق وبرغم ما كان يضيء في العهد الفيصلي من انوار الامل والاستبشار ظلّ فريق من كبار ادبائه يطنب عليهم الشاؤم فينشونهُ شعراً قاتم اللون ناقماً سوء الحال . وزعيم هذا الفريق الرصافي كما ترى في قصيدته للربعاني سنة ١٩٢٢ اذ يقول [1] —

أأمين جئت الى العراق لكي ترى ما فيه من غُرر الثلى وحجوله
عفواً فذاك النجم أصبح آفلاً والقوم محتربون بعد افوله
ومنها : واذا وقفت بدارس من مجده فكوقفة الباكين بين طلوله
وانحبّ كما نحب الحزين مكفكفاً غُرب الدموع بجانبي منديله
ومنها : حال لو افكر الحكيم بكنهه طولَ الزمان لعيّ من تعليله
من ذا يدله فان قوارعي بثّت لصبر الله من تبديله

الى ان يقول : —

من أين يرجى للعراق تقدم وسبيل ممتلكيه غير سبيله
لا خير في وطن يكون السيف عند جبانه والمال عند بخيله
والرأي عند طريده والعلم عند غريبه والحكم عند دخيله

وتظهر هذه الروح في قصيدته في حفلة الحزب الوطني البغدادي للستر كراين الاميركي (سنة ١٩٢٩) اذ يقول [2]

واذا تسأل عما هو في بغداد كائن
فهو حكم مشرقي الضرع غربي اللبان
وطني الاسم لكن انكليزي الشاشن
قد ملكنا كل شيء نحن في الظاهر لكن...
نحن في الباطن لا نملك تحريكاً لساكن

ومثل ذلك قصيدته « الحرية في سياسة المستعمرين » (ديوانه ٤٢٦) وفائدة الانتداب (٤٢٧) وكيف نحن في العراق (٤٣٥) وحكومة الانتداب (٤٣٧)

(١) ديوانه ٤٠٣ (٢) ديوانه ٤١٤

هذا الشعر القائم كان شائعاً في الاوساط القومية المتشددة ويقابله شعر وطني مستبشر كان ينظر الى الامور بعين الرجاء مؤمناً بالنهضة الجديدة واثقاً بتقدمها . ومن أمثلته ما قيل في المتعلم العراقي . والنهضة العربية ، وآمال الشباب والملك العربي والسيادة القومية وما الى ذلك كقول الجواهري من قصيدة في سفر الملك فيصل الى جنيف (١٩٣١) تمهيداً لدخول العراق عصبة الامم [1] يفتتحها بوصف مناقب فيصل وحسن سياسته وجميل خدمته للعراق ثم يقول

لا أدعي انّ قد أتم نموه من كان امس بشكل طفل حاب
فالملك ليست بالبعيد منالها عن كل شعب طامح وثاب
لكن اقول أريته مستقبلاً لا بالعديم سناً ولا الخلاب
كالشهد اول ما تذوّقهُ فمٌ ما زال بين لهاه طعم الصاب
فاليوم هاهنا بظلك يحتمي مثل احتماء العين بالاهداب

ومثل هذا القول بل واكثر منهُ استبشاراً وايماناً بالمستقبل يتجلى لك في كثير من الشعر الذي نظم في عهد فيصل وعهد خلفه الملك غازي الأول

﴿ الثورة السورية ﴾ ذكرنا ان دمشق كانت بعد الحرب الكبرى أول عاصمة خارج الحجاز نودي فيها بالاستقلال العربي . وهاك اول برقية وردت الى بيروت بعد دخول العرب دمشق (وقد نشرت في ٢٤ ذي الحجة سنة ١٣٣٦ بتوقيع الامير سعيد الجزائري) — « بناء على تسليمات الترك فقد تأسست الحكومة الهاشمية على دعائم الشرف طهّروا العدوم واعلنوا الحكومة باسم الحكومة العربية »

ومعلوم أن سوريا بعد الحرب عهد بادارتها المستقلة الى الامير فيصل . ثم حدثت حوادث وجرت مفاوضات سياسية لا مجال لذكرها الآن . وفي خلال ذلك تم لحكومة دمشق تنظيم المؤتمر السوري ممثلاً لجميع الاقطار السورية وهنا فلسطين فأعلن في ٧ اذار (مارس) سنة ١٩٢٠ المنادى بالامير فيصل ملكاً دستوريًّا على البلاد السورية [2]

على ان ذلك الاستقلال لم يطل عهده . ففي ٢٥ تموز (يوليو) من السنة نفسها دخل الجيش الفرنسي دمشق فاضطرّ فيصل الى ترك عرشه وأصبحت سوريا داخلة في منطقة الانتداب . وبذلك أخذت تلك الثائرة الملكية التي كان السوريون قد بدأوا يغتبطون بها . فبعد ان كان الشعر العربي في حمأم شعر القومية السائدة والوطنية الجذلة والراية العربية الخفاقة اصبح ذكريات مؤلمة كقول حليم دموس من قصيدة في وداع فيصل مطلعها : —

اضاعوه وكان نقيّ هماً وبالأوطان صبًّا مستهاما

(١) ديوانه (١٩٣٥) ١٠٦ (٢) راجع الثورة العربية (سعيد) ٢ — ٣٠

(أضاعوه وأي فتىً أضاعوا) أضاعوا القلبَ واليدَ والحسامَا
فودَّع في الدجى تاجاً وعرشاً ومملكةً وآمالاً جسامَا
هو التاريخ عاد فعُد اليه وصف غرناطةً تصف الشآما
سلاماً يا أبا الغازي سلاما يعزُّ على المروءة ان تضاما
أطعتَ عصابةً ضلَّت فكانت بصدر جهادك الماضي كلاما
ولولا ذاك كنت الملك فينا ولكن ابعدوا عنك الكراما
فسادت في رُحاب القصر فوضى فلا رأياً هناك ولا نظاما

***

وكقول الخلايلي من قصيدة نظمها في دمشق (٣ك ١٩٢٠) ومطلعها — وقفت على الاطلال اطلال قحطان [1] —

لئن كنتمُ من قبل في يد غاصب ضعيف القوى من خمرة الجهل نشوانِ [2]
فانكم ذا اليوم نهبٌ مقسَّم بأيدٍ شدادٍ شرّها منكم دانِ
وقدتم وسيف القوم يرهف حدَّه وما غمده الا طُلى آل عدنانِ

وله كثير مثل ذلك

وكذلك خير الدين الزركلي كقوله من قصيدة سنة ١٩٢٢ وهو في عمان [3]

أبكي ديارا خلقتْ للجمال
لبسى مثال
أبكي تراث العزّ والعزُّ غال
صعب المنال
أبكي عروساً قعدتْ بالرجال
عن النضال
أبكي جلال الملك كيف استحال
الى خيال

وله قصيدة سماها الفاجعة [4] لنظمها على اثر واقعة ميسلون ودخول الجيش الفرنسي الشام ومطلعها —

الله للحدثان كيف يكيد يَرَدى بغيض وقاسيون يميدُ

(١) ديوانه ص ٢١ (٢) يقصد الاتراك (٣) راجعها في ديوانه ٢٤ (٤) ديوانه ٤٢

ومنها ما في دمشق لناهض من عزّة وبها سرادق غاصب ممدود
بلد تبوأه الشقاء فكلما قدم استتامّ له به تجديد

وبعد ان يصف الجيش والمخذال السوريين لتنافر زعمائهم يقول —

خدعوك يا أمّ الحضارة فرتمت تجني عليك قبائل وجنود
من ذا يكفكف أدمعاً مهراقة كانت تطل حسرة وتجود
تسقى بها في الفوطتين مباسم ذهب الترواح بمائها، وخدودُ

ولو راجعنا ما نظمه كبار شعراء سوريا بعد سقوط العرش الفيصلي، كخليل مردم وفارس الخوري وشفيق جبري، ومحمد البزم وفؤاد الخطيب ومحمد الشريقي وبدر الدين حامد واضرابهم وما نظمه زملاؤهم في سائر الأقطار العربية والمهاجر لوجدنا عليه سمة من الألم تشف عن أسفهم على ماضاع من اماني وتبدّد من احلام

***

في خلال ذلك كانت العراق (كما مرّ معنا) تتقد بالثورة ومصر تجاهد تحت لواء سعد. وقد رأى السوريون نتائج الثورة العراقية والجهاد المصري، فكان ذلك دافعاً لهم الى تنظيم الكلمة ومناوأة الانتداب

ولم تلبث هذه المناوأة أن انجلت عن ثورة ١٩٢٥

ولسنا نبحث الآن عن الاسباب البعيدة او المباشرة لهذه الثورة فذلك عمل مؤرخيها، على أننا نقرر هنا انها كانت خطوة كبرى في سبيل الهدف المنشود فقد انتهت بتنظيم الكتلة الوطنية، ثم باعلان الجمهورية (سنة ١٩٣٢) وبالاتفاق مبدئيًّا على معاهدة شبيهة بمعاهدة العراق

وقد نظم في الثورة السورية والحركة الوطنية شعر كثير أشتركت فيه جميع الاقطار العربية. فمن مصر مثلاً شوقي وحافظ، ومن العراق الرصافي والجواهري، ومن المهاجر السورية اللبنانية الشاعر القروي، والياس فرحات، والدكتور جورج صوايا، والياس قنصل، وابو الفضل الوليد

ومن لبنان وفلسطين مصطفى الغلاييني وعلي الحوماني وابراهيم طوقان وفتى الجبل وسواهم فاذا أضفت هذه الاسماء الى أسماء شعراء سوريا الذين مرّ ذكرهم والى اسماء كثيرين في انحاء البلاد العربية ممن لم يذكروا استطعت ان تقدر ماكان لهذه الثورة من الاثر في الشعر العربي وانا نشير هنا اشارة خاصة الى دواوين الغلاييني، والحوماني، والشاعر القروي، والياس قنصل وبدر الدين حامد لما يتأجج فيها من نيران تلك الثورة وما تحمله الى الاقطار العربية من حرارتها المتقدة

﴿الجامعة العربية والروح الاقليمية﴾ رأينا من الفصول السابقة ان الدعوة للعربية لم تكن قبل الدستور العثماني منظمة او ذات هدف معين بل كانت عاطفة قومية تظهر من حين الى آخر في الادب العربي بمظهر التذكير بالماضي والاهابة بابناء الشرق العربي الى التقدم في سبيل العلى. فلما دخل العرب العهد الدستوري واصبحوا يرون بجلاء ما لهم وما عليهم اخذتهم الغيرة القومية فبدأوا يلهجون بها، وشعروا ان العنصر السائد في السلطة يقاومها فازدادوا تعلقاً بها، ولم يلبثوا ان نظموا الجمعيات والهيئات السياسية، فانتشرت بينهم دعوة قومية ترمي الى استقلال الاقطار العربية استقلالاً اداريًّا

وفي الحرب الكبرى اعلنت الثورة الحجازية باسم العرب والملك العربي ولما وضعت الحرب اوزارها انتشرت الدعوة الجامعة العربية تحت لواء الهاشميين انتشار النار في الهشيم، وكانت ترمي الى احياء مجد العرب بتنظيم دولة كالدولة الاموية في الشام تضم الاقطار السورية والعراقية والحجازية ثم تتدرج الى سواها

حلم جميل استعذبهُ السواد الاعظم من سكان تلك الاقطار، وقد كان مصدر الهام لكثير من الشعر القومي والخطب الحماسية. ولن ننسى يوم نُشر العَلَم العربي في بيروت وقد استولى فيه على الناس شعور غريب لا عهد لهم به من قبل شعور الكرامة القومية الحرة. وكان الاحتفال في دار الحكومة. وهاك بعض ما قاله الخطيب «الرسمي» مخاطباً الشعب العربي [1]—

«ان هذه الراية التي تنشر اليوم هي شعار استقلالك وستكون خافقة فوق رأسك ما خفق فؤادك لها، فان بقاءها لهو اليوم في يديك. فان احببت لها البقاء فاستمت في حبها واعمل على اعلائها بين الامم. ان البلاد العربية اليوم هي بمثابة كتلة وطنية واحدة خاضعة لحكم شريف مكة واميرها وملك البلاد العربية جلالة مولانا المفدى حسين الاول. واننا لا ننسى ابداً لحلفائنا ونخص منهم دولة انكلترا العظمى المساعدة العظيمة التي قاموا بها نحونا لحصولنا على هذه النعمة الكبرى»

وقد اقيمت المهرجانات لرفعه في الشام وسائر المدن السورية. ولم يشكك احد يومئذ في ان الملك العربي اصبح امراً واقعاً وان انتصار الحلفاء على الاتراك كان الحجر الاساسي في توطيده

ودارت الايام فاذا بالانتداب يفرض على البلدان العربية. واذا بالحكومات العربية الاقليمية تحل محل الدولة المتحدة، واذا في الادب العربي فكرتان تتصارعان فكرة الوحدة وفكرة الاقليم، الجامعة العربية والروح الاقليمية: —

اما الاولى فكانت ولا تزال رسالة الشعر العربي منذ عهد الدستور (١٩٠٨). وقد رأينا

(١) راجع جريدة صوت الاحرار ٢١ نيسان (ابريل) سنة ١٩٣٧

كيف برزت بعد الثورة ، وعبثاً حاول دعاة التقسيم اماتتها . فهي عند السواد الاعظم من عرب الشرق الادنى رسالة المجد والتاريخ . وقد ساعد على احيائها في الادب بضع حوادث هامة — منها المشكلة الفلسطينية ، وموت الحسين . وموت فيصل ، وتقدم الروح القومية في العراق وسوريا ، واتجاه مصر نحو الاخاء العربي

***

فالعرب عموماً يعدون مسألة فلسطين مسألة عربية عامة ولذا ترى الشعر العربي في كل قطر يعطف عليها كقول مهدي الجواهري (النجف) من قصيدة موضوعها فلسطين الدامية [1] —

فيا فلسطين ان اعدمك زاهرةً قلست أولَ حقٍّ غِيلةً هُضما
سورٌ من الوحدة العصماء واعهم فاستحدثوا ثغرة جرداء فانثلما
ثار الشباب ومن مثل الشباب اذا ريع الحمى وشُواظ الغيرة احتدما
يأبى دمٌ عربيٌّ في عروقهم ان يصبح العربيُّ الحرّ مهتضما

وقول بشاره الخوري (بيروت) من قصيدة موضوعها جهاد الجزائر [2] —

يا جهاداً صفق المجد له ليس الفارُ عليه الارجوانا
شرف باهت فلسطين به وبناه للعالي لايدانى
إن جرحاً سال من جبهتها لثمته بخشوع شفتانا

والشاعر القروي (البرازيل) في اواخره من قصيدة موضوعها « وعد بلفور » —

الحق ملك ومن وعودك اكبر فاحسب حساب الحق يا متجبر
قد الوعود وتقتضي انجازها موج العباد خشيت يا مستعمر
لو كنت من أهل المكارم لم تكن من جيب غيرك محسناً يابلفرُ
عد من تشاء بما تشاء فانما دعواك خاسرة ووعدك اخسر
فلقد فقوز ونحن اضعف امة وتؤوب مغلوباً وأنت الاقدر

ولعل شعر ابراهيم طوقان (نابلس) اصدق مرآة لحال فلسطين السياسية والاقتصادية ولولا حرج الحال لاثبتنا هنا كثيراً من قطائعه الوطنية المستمدة من شقاء فلسطين وسوء احوالها . وهي منشورة في مختلف الصحف السيارة كالبرق وفلسطين والدفاع والمعرض والجامعة الاسلامية وسواها

اما الحسين ملك الحجاز ففي نقله الى قبرص ، ثم مبايعته بالخلافة في عمان ، ثم موته في تلك المدينة عبر أثارت الشعر العربي وأذكت فيه روح الرسالة القومية واننا نكتفي هنا بالاشارة

(١) ديوانه (١٩٣٥) ١٧٦ (٢) ملحق جريدة المعرض عدد ١١٠٥

الى بعض القصائد التي قيلت فيه وهي قلّ من كثر ، بل وشل من بحر

فللشوقي مرثاته : —

لك في الارض والسماء مآتم قام فيها ابو الملائك ماتم

ولفؤاد الخطيب : —

هي المواكب فاشهد كيف تبتدر كالسيل مصطخب التيار ينحدر

اوفت تودع جثمان الذي دُفنت الى الجزيرة في اكفانه مضر

واشفيق جبري : —

تلكم قريشٌ وما جفت عوالبها على الحطيم ولم تنشف مواضيها

من ذاكر في ظلال البيت ثورتها والمهد غير بعيد عن لياليها

ولابراهيم طوقان — ذكرى ثورة الحسين : —

اطلقي ذاك اليارا قدك ضيماً واصطبارا

يُطلب العز ابتدارا يدرك المجد اقتسارا

ولبدر الدين حامد — في خلافته

تاج مجد الخلافة انتظما فوق رأس الخليفة العربي

كم لبثنا السنين في وجل وذرفنا مدامع الحرّب

وله في منفاه الى قبرص: —

اسرفت فيما جئته يازمانْ فما لهدرٍ منك يوماً امانْ

وللجواهري في ذلك : —

هي الحياة باحلاء وامراز تمضي شعاعاً كزند القادح الواري

وله مرحباً بالحسين الى العراق: —

أرى الشعب في اشواقه كالمعلق لما حدثوماً عنك يرجو ويتقي

وشبيهٌ بما قيل في الحسين ماقيل في ابنه الملك علي فقد نظمت فيه مراث وطنية تشف عن شعور العرب في مختلف الامصار نذكر منها هنا قصيدة شبلي ملاط : —

أمن جرح على جرح دمىٌّ الامّ يصاب بيت الهاشميّ

فما كاد الحسين يغيب حتى هاوت شهب فيصلَ والعلي

وأما فيصل فان موته كان عند أدباء العرب الفجيعة الكبرى وقد أقيمت لهُ مآتم في مختلف الاقطار العربية وفي المهاجر . ولو جمع ما نظم في أعماله وفي تمداد مناقبه لملأت مجلداً ضخماً فهو عند الجميع بطل العروبة وحامل لوائها . واليك على سبيل التمثيل بعض ما وصلنا من المراثي فيه: —

لجميل الزهاوي — فجع المشرقين خطبٌ جليلٌ وعرى المغربين حزن طويل
لامين الريحاني — حلق النسر في الفضاء بعيداً — (وهي قطعة من الشعر المنثور)
لبشاره الخوري — لبستْ بعدك السواد العواصمْ واستقلت لك الدموع الغمائمْ
لمحمد البزم — رُم عظماً اذا أردت خلوداً وارمق الشهب في السماء صعودا
للدكتور أبي شادي — : هكذا هكذا شعوب تموتم أيها الموت ساء غشك مغتم
لنبي محمود طه — تألق كالبرقة الخاطفهْ وجلجل كالرعدة القاصفهْ
للشاعر القروي — أقصر النجلد ان العقل منهزمُ وأهون الخطب ان الدمع ينكدم
لوديع البستاني — قمرٌ — وبات الفجر — والثقلان يوم الخميس بحضرة الجثمان
لخليل دموس — هوى من سما عليائه بعد ان سما فسالت عليه دمعة الارض والسما
لابراهيم طوقان — شيعي الليل وقومي استقبلي طلعة الشمس وراء الكرمل
لصلاح الملايدي —

كفكف دموعك واعد شجو المأتم فالموت من جند الملك الاعظم
لصلاح الرفاعي — علم العروبة غار في العلياء طفي على الاسلام والغرباء
لعبد المسيح حفوظ : — عبقري الملوك أي فؤاد اسكتهُ يد الزمان الهادي

هذا فضلاً عن كثير من الاناشيد الشجية وكمثال لها نثبت بعض فقرات من نشيد الكشاف المسلم في صيدا : —

دافعت بالصدق عن حرمة الحق
والناس قد كانت في الغرب والشرق
تراك يا فيصل
تراك يا فيصل
اليأس قد أبلى في الناس واستولى
في رحبة الوادي عروبة تسكلى
تفديك يا فيصل
تفديك يا فيصل

***

﴿ الاقليمية والقومية العربية ﴾ يظهر ان اشتداد الاقليمية مقرونٌ باشتداد السلطة الانتدابية ففي العراق وفي سوريا ولبنان وفلسطين نشأت هذه الفكرة كما رأينا بعد استقرار الانتداب، وهي ترمي الى فصل الاقطار العربية بعضها عن بعض روحيًّا وماديًّا وتطويق كل منها بحواجز اقتصادية وسياسية تجعل اتصالها بسائر الاقطار العربية أمراً متعذراً أو شاقًّا.

وللوصول الى هذه الغاية اخذوا يبنون لنظام التربية الوطنية والادارة الملكية والعسكرية على اساس الوحدة الاقليمية لا على اساس الجامعة القومية العربية . فالسورية مثلاً والبنانية والفلسطينية والعراقية والمصرية والحجازية واليمنية وحدات مستقلة لا ترتبط بعضها ببعض الا كما ترتبط الصين بالهند او ايران وتركيا ، اللهم الا ما كان منها تحت انتداب واحد او ما كان منها مرتبطاً بمعاهدة خاصة فقد تظهر النزعة الاقليمية فيه في اخف الوانها

على ان ما نالتهُ مصر والعراق من السيادة الملكية ، وما يملأ صدور السوريين من آمال بالاستقلال قد انشأ من كل من هذه الاقطار شخصية مستقلة . شخصية تستطيع ان تفكر بما لها وما عليها بحاضرها ومستقبلها ولذلك تراها تقترب من فكرة التضامن القومي

وقد رأينا ان الادب المصري الصميم كان من قبل نفوراً من فكرة الجامعة العربية . ولكنهُ اخذ الآن يجاري الادب العراقي والسوري . بل اخذ ساسة مصر اليوم ينظرون بعين العطف الى ما كان اسلافهم قبل عشرين سنة يرمقونهُ شزراً . وها نحن نرى شيوخ الامة المصرية ونوابها يتحركون لنصرة فلسطين ويدعون الى عقد مؤتمر برلماني عربي (يمثل جميع الاقطار العربية) للبحث في هذه المسألة (١)

ولا ينكر ان السياسة لا تزال في جانب الاقليمية وربما ظلت كذلك أحقاباً طويلة . اما شعور الامم العربية فانهُ يتجه ببطء وثبات نحو الوحدة العامة . وقد كان الشعر العربي ولا يزال افضل وسيلة لإنماء هذا الشعور وتقويته . الشعر العربي اليوم سواء كان في مصر او العراق او الاقطار السورية أميل الى مصارعة الاقليمية فلا غرابة ان نرى لبنانيًّا في حفلة اقيمت له ببغداد (١٩٢٤) يقول من قصيدة مطلعها (٢)

غريبٌ قد طوى الفلوات سعياً الى هذي الربوع الندسيه

سلاماً نهر بغداد فاني احبي في حماك الاريحيه
احبي فيك عن قومي اخاه سوريا شقيقتك الوفيه
إخاه بين اهل الضاد يحيي اماني في نفوسهم الفتيه
ألا ان الزمان لقد دهاهم بما تهوى النفوس الاشميه
وفرّق شملهم حتى كأن الـ ـتخاذل بينهم امسى مزيه

(١) راجع تفصيل ذلك في صوت الاحرار ٢ تموز ١٩٣٨ (وما بعده)
(٢) للكاتب راجعها في مجلة الطلبة (بيروت) حزيران ١٩٢٤

وهل هم غير اخوان فيحفظوا ويشقوا في مساعيهم سويه
لنا بلسانا وطن كريم وفي تاريخه صلة قويه

وان نرى شاعراً مصرياً كبيراً كاحمد محرم ينادي الامة العربية بقوله من قصيدة مطلعها[1]

حيّ المنازل واسأل امة العرب ما بال سهمك لم يظفر ولم يصب
بني العروبة هذا صوت شاعركم يرمي بكم عربي الدار والنسب
يطوي البلاد اليكم لا يغالبه كحنان مرتحل او شوق مغترب
انا الذي ان شكوتم وقع نائبة انظرت حولي هل تهوي البسيطة بي
أعزز عليّ بما تلقون من عثر وما تذوقون من همّ ومن نصب

ولا يمنع ذلك تغزّل اللبناني بلبنان والمصري بمصر والعراقي بالعراق ولكن يمنع هذا التغني الاقليمي الذي ليس فيه الا الضرر الجسيم على الشرق العربي. والذي يلوح لنا من تحليل العواطف الشعرية في مختلف البيئات العربية ان العراق وسوريا وفلسطين في مقدمة البلدان التي تمتاز القومية العربية العامة. أما في لبنان ومصر فلا يزال الصراع الروحي قائماً بين الفكرتين وقد بدأت الاقليمية تتراجع قليلاً الى الوراء. وانما هذا التراجع لما طرأ على فكرة الوحدة العربية من تطور في هذه الحقبة الاخيرة

فمعظم الداعين الى الوحدة الآن لا يؤمنون بما كان يؤمن به الدعاة الاول من توحيد الاقطار العربية في مملكة واحدة. ذلك أمر يرونه بعيد المنال. وانما هم يدعون الى تعاون عام والى تحالف اخوي يشد أزر كل اقليم ولا يمس استقلاله التام. فمصر في رسالة الشعر العربي الحديث ستبقى مصر وكذلك العراق وسوريا وسواها. وستصير كل منها في طريق الحياة مستقلة عن الاخرى ولكنها ستمد الى جارتها يد الاخاء فتهدم من بين هذه الاقطار الحواجز الاقتصادية والسياسية بحيث يشعر كل عربي أينما كان أن كل بلاد عربية هي بلاده وانه اذا اصاب اي قطر عربي حيف فعلى سائر الاقطار ان تهبّ لمساعدته

ان افراد الاسرة الواحدة قد يستقلون بعضهم عن بعض استقلالاً اداريًّا واقتصاديًّا ولكن يبقى بينهم رابطة لا تزول هي رابطة الاسرة التي تجعل منهم اخوة مهما تكن اختلافاتهم في الحياة حتى اذا ألمت بهم ملمة كانوا يداً واحدة فلا يتسنى لغريب ان يستعبدهم او يستذلهم

تلك هي رسالة الشعر اليوم فهل يحققها الزمان أو يمزقها ثم يحمل الى الاقطار رسالة بغير هذا العنوان؟

(١) جريدة النداء (بيروت) ٧ حزيران ١٩٣٣